## الحج.. الاجتماع الرائع



◄ يشهد البيت الحرام، ومكّة المشرّفة جموعا ً بشرية ً كبيرة ً متلاحقة لا تنقطع، فهي محط الرحال وموضع الآمال وإن البيت ليموج بحركة الناس وازدحامهم في الطواف حول الكعبة، أو في السعي بين الصفا والمروة، أو في غير ذلك من شعائر الحج أو العمرة.

الكعبة حجر يتحوّل، في الوعي إلى معراج للروح، والبيت بيت للعبادة والتسليم والتعظيم، فيه الأمن والأمان وإليه شرّع سبحانه الحج.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّدَيِ بِبِكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًّى لِلْعَالَمِينَ \* فِيهِ آيَاتُ بَيِيِّنَاتُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن ْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهَ عَلَى النَّاسِ حِجَّ ُ الاْبَيِّتِ مَن ِ اسْتَطَاعَ إِلَيْه ِ سَبِيلا) (آل عمران/ 97-96).

روَ إِ ذَ ْ جَعَلَا ْنَا الا ْبَيَ ْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَ ْنَا وَاتَّ خَرِذُوا مِن ْ مَقَامِ إِ بـْرَاهِيمَ مُصَلَّاً مِ وَعَهِد ْنَا إِلـَى إِ بـْرَاهِيمَ وَإِ سُمَاعِيلَ أَن ْ طَهِ ِّرَا بَي ْتـِيَ ل ِلمَّ اَ رَفِينَ وَ الْعَاكَ ِفِينَ وَ الرَّ وَ الرَّ وَ الرَّ وَ الرَّ وَ الرَّ وَ الرَّ وَ الرَّ

(وَ إِ ذِهْ بَوَّ َأَهْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ السَّبَيْتِ أَنَّ لا تُشْرِكٌ بِي شَيَّاً وَطَهَ ِسَهُ بَيَّتِيَ لِلطَّاَائِفِينَ وَالسَّائِةَ عَائَمِينَ وَالرَّائُكَّ عَ ِ السَّبُجُودِ) (الحج/ 26).

(وَأَدَرَ "نَ فَيِ النَّاسِ بِالْحَجِ " يَأْ "تُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِ " ضَامِرٍ يَأْ "تِينَ مِنْ وَيَدْ كُرُوا اسْمَ اللَّيَهِ فِي أَيَّامٍ كُلُلِ " فَجَ " عَمْرِيقِ \* لَيِهُمْ هَدُوا مَنَافِعَ لَيَهُمْ وَيَدَ كُرُوا اسْمَ اللَّيَهِ فِي أَيَّامٍ مَعَ للَّهُمْ وَيَلْبُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا مَعْمُوا الْعَبَامِ فَكُلُلُوا مِنْهَا وَأَطُّعْمِهُوا الْعَبَامِ اللَّهِ عَلَي مَا رَزَقَهُمُ مَنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُلُوا مِنْهُمْ وَلَا يَطَّوَا تَفُولُوا اللَّهُ وَلَا يَكُلُمُ وَلَا يَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ عَلَيْهُمْ وَلَا يَعْمَلُوا تَفَعُوا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْهُمْ وَلَا يَعْمُوا اللَّهُ عَلَيْهُمْ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّلُو وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللْمُ اللَّهُ الللَّهُ اللَلْعُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَ

(جَعَلَ اللَّهَ الدُّكَعَّبَةَ الدّْبَيَّتَ الدّْحَرَامَ قَيِيَامًا لَيلنَّاسِ وَالشَّهَرْرَ الدَّحَرَامَ وَالدَّهَدَّيَ وَالدُّهَلَائِدَ ذَلَيكَ لَيتَعَّلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعَّلَمُ مَا فَي السَّمَاوَاتِ وَمَا فَيِ الأرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلْ ِ شَيْءٍ عَلَيِمٍ ) (المائدة/ 97).

## - ما نتعلَّمه من هذه الآيات الشريفة:

1- أنّ الرب سبحانه هو الذي دلّ نبيه إبراهيم (ع) على مكان البيت، حين أمره بإنزال إسماعيل وأمّه عنده، في هجرتهما القديمة. وكان آدم (ع) قد وضع م ِن قبل، قواعد بيت ا□ بأمر من ا□ عزّ وجلّ.

استأهل بيت ا∐ عز ّوجل ّلما له من دلالات إيمانية عميقة، ورموز روحية شاخصة، ومن أثر في توحيد وجهة الموحدين، حرمة ً خاصة، واحتراما ً يناسب وظيفته ويلائم نهمته: (ج َع َل َ اللَّ َه ُ الـ ْك َع ْب َة َ الـ ْب َي ْت َ الـ ْح َر َام َ ق ِي َامًا ل ِلنَّاس ٍ).

2- شرع إبراهيم وإسماعيل برفع القواعد والأسس القديمة وإعلائها، حتى استوت بيُنية حجرية مكتملة.

وكان الرجلان — وهما يزاولان العمل البنائي العظيم — يشعران بضآلتهما إزاء عظمة ا□ تعالى، ويتطامنان رهبة ً ورغبة وخشوعا ً، ويمتلئان مناجاة ودعاة: ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت َ السميع العليم.

3- الكعبة أساس راسخ لعقيدة التوحيد. ومركز إشعاع لهذه العقيدة، ومناجاة من أشراك الوثنية والضلالة والجهالة، ففي علاقة الموحّد بالكعبة تتجلّب مظاهر وحدانية ا□ في الطاعة والعبادة، وحدة في الطريق إلى الغاية: (و َإِنْ " بُوّ اَ " نُ " لَابْ "ر َ اهْ ِيم َ م َكَ َان َ الْ "بَيْت ِ أَ نَ لَا لَابْ "ر َ اهْ ِيم َ م َكَ َان َ الْ "بَيْت ِ أَ نَ لَا لَا تُشْ رُدِك " بِي ش َيْ عُاً).

4- والكعبة، بهذا المعنى الإيماني العظيم أو ّل بنية شهدتها البشرية، أنشئت لهذا الهدف، وأو ّل بيت و ُضع للناس من أجل العبادة، فقصد ُ زيارته والحج إليه تزكية للنفس، وتطهير للقلب، وهو درب يهدى إلى الصراط المستقيم، ويغترف المرء من حج ّه وقصد زيارته عظيم َ الأجر والثواب: (و َإِ ذ ْ جَعَلَا نَا الدْبَ عَنْ مَثَابَةً لِلنَّ اسِ ).

سأل رجل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عن البيت الحرام: - أهو أو ّل بيت؟ قال: - "لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أو ّل بيت وضع للناس مباركا ً، فيه الهدى والرحمة والبركة". وقال (ع) أيضا ً: "كانت البيوت قبله، ولكنه كان أو ّل بيت وضع لعبادة ا□".

5- ومن ملامح الاقتداء بإبراهيم (ع) والائتمام به وهو يخطو أمامنا في الطريق إلى ا□، أن أمرنا ربّنا سبحانه أن نتخذ من مقام خليله إبراهيم — إذ كان يبني الكعبة — مصلّى لنا، نتوجّه فيه بالطاعة والذكر والشكر، فنشعر بجهود الخليل (ع) إذ كان يتعب وينصب، فنشكر ا□ أن هيّاً لنا رجلاً نأتم به كإبراهيم. وربّما أراد ربّنا تبارك وتعالى أن يزيد من منزلة إبراهيم عنده ومن ثوابه لديه، بما يناله من الأجر في كلّ صلاة يصلّيها مصلّ في مقام إبراهيم. وفي الحديث عن الرسول الكريم (ص) وهو يقرّر هذه الفكرة العامّة: "مَن سنّة ً حسنة ً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة".

6- واستأهل بيت ا□ عزِّ وجل لما له من دلالات إيمانية عميقة، ورموز روحية شاخصة، ومن أثر في توحيد وجهة الموحدين، حرمة ً خاصة، واحتراما ً يناسب وظيفته ويلائم مهمته: (ج َع َل َ اللَّه َ هُ الـ ْك َع ْب َة َ الـ ْب َي ْت َ الـ ْح َر َام َ ق ِي َامًا ل َلنَّ اس َ ). فالبيت له في النفوس تعظيم وقداسة، وجعل ا□ سبحانه من الناحية الزمنية أشهرا ً حُرما ً، ووصل بين حرمة المكان وحرمة الزمان بصلة وثيقة، كالحج في شهر ذي الحج ّة الحرام، وشر ّع قضايا تناسب الحرمة كاله َدى والقلائد.

وتتعدّد مصاديق احترام البيت الحرام وتعظيمه فيما نفعله من التوجّه في الصلوات شطر الكعبة المشرّفة، وفيما نصنعه من توجيه الذّبائح وتوجيه الأموات وجهة البيت الحرام، وكذلك فيما نتجنّب فيه استقبال القبلة واستدبارها من سيّئ حالاتنا، وفيما يخدش توقيرنا وتكريمنا لهذه البقعة المطهّرة الكريمة.

7- ويرتبط بتعظيم البيت وتوقيره واحترامه ما يشيع فيه من أمن تشريعي ومن سلامة الإنسان فيه وطمأنينته على دمه وعرضه وماله: (و َإِ ذ ْ ج َع َلا ْنَا الا ْب َي ْت َ م َث َاب َة ً ل َلنّ َاسِ و َأ َم ْناً)

(البقرة/ 125)، (إِن ّ َ أُ و ّ َ ل َ ب َي ْت ٍ و ُض ِع َ ل َلنّ اَس ِ ل َللّ َذِي ب ِب َك ّ َة َ م ُب َار َ كاً و َه ُد ًى

ل َل ه َال َم َين َ \* ف ِيه ِ آي َات ُ ب َي ّ ن َات ٌ م َق َام ُ إ ِ ب ْر َ اه ِيم َ و َم َن ْ د َ خ َل َ ه ُ ك َان َ آم ِناً ال عمران / 97-96).

إنّ المرء ليشعر — وهو يعيش حالة الاحترام وحالة الأمن في البيت الحرام — بمعان من الجلال ومن الطمأنينة الشاملة، ويحس أنّ بيت ا تبارك وتعالى ملاذ الطريد، وملجأ الشريد، وحصن المضطهَد، وأمان الخائف، وهناءة المرعوب، فهنا في بيت ا ينبع السلام الدائم، وهنا في بيت ا يتحدّر الجلال الدائم.

8- وإذ يفرغ إبراهيم (ع) هو وابنه إسماعيل من إقامة الكعبة الشريفة، يبدأ التكليف الإلهي للناس أن يقصدوا بيت ا□ ويشد وا الرحال إلى حج ه وزيارته، في ُسمَع صوت النبي إبراهيم (ع) مؤذ نا ً في الناس بفريضة الحج: (و َأَندِ "ن ْ فَي النّاسِ بِالدْحَجِ " ي َأ ْ تُوك َ رِجَالا و َء َلاَ ى كُلْ " فَي النّامِ مِن النّاسِ مِن كُلْ " فَجَ " عَمَيقٍ )، (و َلَـلَّ مَ عَلَى النّاسِ حَجِ " ُ الدْبَيْتِ مَن َ السُّتَ طَاهِ آ اللهِ عَلَى النّامُ عَلْمُ النّامُ عَلْمُ عَلَى النّامُ النّامُ عَلَى النّامُ عَلَ

إن " ا عز " وجل " إله البشرية ورب البشرية، وقد انبثق الناس جميعا ً من يد القدرة الإلهية الخالقة العظيمة؛ من أجل أن يبدؤا رحلة الحياة في السير نحو ا تعالى، وفي التوج " من وأحل أن يبدؤا رحلة الحياة في السير نحو ا تعالى، وفي التوج " من أحمًا خمَلَة " تُ الذي انبثقوا منه، بنمط خاص من التعب "د، وطراز فريد من الطاعة والتسليم: (و مَا خمَلَة " تُ الْ عَلْمَ مَا اللهُ عَلَيْهُ مُ مَن " رَز " ق و و مَا أ رُيد و أ نَن " اللهُ عَلَيْهِ مُن " مِن " رِز " ق و و مَا أ رُيد و المراز فريد من الطاعة والتسليم الله عنه المربيد و المراز فريد من المربيد و المراز فريد و المراز فريد و المربيد و المربيد

يُطْعَمِعُونِ \* إِنِّ َ اللَّهَ هُو َ الرِّزَاقُ ذُو النَّقُوَّةِ النَّمَتَيِينُ) (الذاريات/ 58-56). وها هو ذات صوت النبي إبراهيم (ع) ينادي بالناس كافَّة بالحجِّ، فالحجِّ مظهر راقٍ من مظاهر الطاعة، والبشر ما خُلقوا إلا ليخطوا في طريق الطاعة.

9- وآية الأذان بالحج: (و َأَ َذ ِ "ن ° ف ِي النَّ اَسِ بِال ° ح َج ّ ِي َأْ ت ُوك َ رِج َالا و َع َلاَ ي كُل ِ " فَ َم ّ عِن ° كُل ِ " فَ ج ّ ع َم ِيق ٍ). تدل " على أن " أذان الرسول في الناس بالحج سي ُقا ب َل بالإجابة، وأن " صوته الذي يجهر بالدعوة إلى قصد البيت وزيارته سيجد آذانا ً صاغية وقلوبا ً واعية، تتخط ّى المسافات، وتتجاوز المفاوز والعقبات والسبل البعيدة الشائكة، لتلب ي دعوة ا التي جرت على لسان رسوله الكريم. فالقادرون من الموح ي دين – كانوا وما يزالون وسيظلون – يسمعون أذان الخليل ونداءه بالحج "، ويلب ون هذا النداء وي ُيم مون وجوههم شطر المسجد الحرام، ماشين على أقدامهم، رغم بعد الشقة، ورغم الفراسخ والأميال، أو يقصدون البيت راكبين نياقا ً قد أرهقها السفر، وأضناها المسير، حتى وصلت إلى مك ق متعبة مكدودة مهزولة ضامرة.

وجموع الحجيج هذه من القبائل والعشائر والأفراد المنقطعين تتطلّع كلّها إلى مكّة المشرّفة، تلبّي النداء الشريف، وتجيب بنبرة تتكسّر، وترقّ، وتسمو، وتشفّ عمّا بها من تخشّع، وهيبة، وسكينة، وعبودية نقية صافية: "لبّيك اللّهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك. إن الحمد والنعمة لك والم ُلك. لا شريك لك لبسيك لك لبسيك.

10- ويشهد البيت الحرام، ومكّة المشرّفة جموعا ً بشرية ً كبيرة ً متلاحقة لا تنقطع، فهي محط الرحال وموضع الآمال، ولا تكاد تخلو كعبة ا□ جلّ وعلا لحظة من قاصد للحجّ أو للزيارة، ومن أجل هذه الكثافة البشرية الهائلة التي تتجمّع في أرض مكّة ومن أجل هذه الحركة العبادية الدائمة، كان لمكّة اسم آخر، ينبثق من هذا المعنى هو "بكّة": (إِنّ َ أَوّ َلَ بَيْتٍ و ُضِع َ لِللّا ّاسِ لاَلّا َذَي بِبَيْتَ مُ بُارٍ كًا و َه ُدًى لِلْهُ عَالاً مَيِن َ).

يقول الإمام الصادق (ع) وهو يفسّر لفظة "بكّة": "سُمّيت بكّة؛ لأنّ الناس يبكّون فيها، أن يزدحمون". وتشهد بصدق ذلك حقائق التاريخ، كما يشهد الواقع الحي الذي نعيشه كلّ عام في موسم الحجّ ومواسم الاعتمار.

إن ّ في البيت لآيات وعلامات، وأنسّها لبيسّنات في الوقت نفسه، توصل إلى ا□ من أقرب طريق صادق، وتُفضي إلى الحق من أيسر وجهة صحيحة: (فِيه ِ آيَات ٌ بَي ِسّنَات ٌ مَقَام ُ إِب ْرَاه ِيمَ وَمَن ْ 11- ومن أجل تحقّق النقاء الكامل، والنظافة الشاملة، أمر ا□ سبحانه نبيّه بالتطهير: تطهير البيت من الأقذار المادية والأنجاس المعنويّة، ليتسنّى لمواكب الحجيج التي لا تنقطع أن تتقدّم إلى بارئها بمراسم العبودية ومظاهر التوحيد والتأليه بقصد القرب منه والزُلفى لديه: (وَءَهِد ْنَا إِلَى اللهِ اللهِ عَاكَدِفينَ وَالاُعاَلِي أَن ْ طَهِ ّرَا بِي ْتَرِيَ لِلطّاّاَ الْفِينَ وَالاُعاَلِي فَينَ وَالاُعاَلِي فَينَ وَاللهِ عَاكَدِفينَ وَالرَّاكَةِ فِينَ وَاللهِ اللهِ المِلْمُ المَا المِلْمُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ المَالهُ الل

(وَ إِ ذِ ْ بَوَ ّاَ أَ ْنَ الْإِبْرَ اهِ ِيمَ مَكَ اَنَ الْ ْبَيِ ْتِ أَنَ ْ لَا تُشْرِكُ ْ بِي شَيِ ْنَا وَطَهِ سِرْ وَ الْقَائِم ِينَ وَ الرّّ ُكَّ عَ السّ ُجُود ِ). وتطهير البيت إنّما يتحقّق بجعله بيتا ً للتوحيد الصافي من لوثة الوثنية وأرجاس الجاهلية، بأن يعلّم إبراهيم (ع) الناس الطريق إلى العبودية الطاهرة، فالعبادة فيه عبادة خالصة لوجه ا□ لا تشويها شائبة شرك أو دنس أو انحراف، كما حدث فيما بعد أيّام الجاهلية الأولية. وتطهير البيت كذلك تطهيره من كلّ ما لا يليق بحرمة هذا البيت الشريف وقداسته.

12- بناء الكعبة، ومظاهر العبادة الخاصّة التي تُزاو َل فيها، والمناسك التي تأتيها الألوف بعد الألوف من الناس، والملايين بعد الملايين، والمعاني والأسرار المتصلة بالحج والبيت الشريف وبمكّة عامّة، كلّ ذلك علامات دالة وإشارات معبّرة، توصل — في نهاية المطاف، أو في أوّل المطاف ونهايته — إلى ا حلل وعلام وتحكي جليل مقامه سبحانه وعظيم سلطانه، إنها آيات وعلامات تكون لذوي البصائر بمثابة البوّابات إلى الصراط: موقف إبراهيم (ع)، حرم آمن يأمن م َن دخله، مناسك وعبادات على نمط فريد، الاستمرار على مدى الليالي والأيّام، الألوف عقب الألوف، والملايين بعد الملايين، ما يحسّه المرء من هيمنة روحية مدهشة. أي شيء من هذه الأمور الرائعة لا يكون علامة تدل على ا سبحانه؟! وأي شيء من هذه المطاهر لا تذكّر بجلال ا وتفرده بالألوهيّة والربوبيّة؟!

إن ّ في البيت لآيات وعلامات، وإنها لبي ّينات في الوقت نفسه، توصل إلى ا□ من أقرب طريق صادق، وتُفضي إلى الحق ّ من أيسر وجهة صحيحة: (فييه ِ آيات ٌ بَي ِسّنَات ٌ مَقَام ُ إِب ْرَاه ِيمَ وَمَن ْ دَخَلَه ُ كَانَ آمِنًا). ◄